الورق الأزرق

للأستاذ عباس محمود العقاد

إلى الورق !

إلى الورق مرة أخرى !

فلا وسيلة غيره على ما يظهر لحفظ النور ولو أطبق الديجور ، وأحاط بالدور ظلام كظلام القبور

وقديماً عرف الناس الورق الذى يحفظ النور للعقول والسرائر

وها هم أولاء يعرفون الورق الذى يحفظ النور للعيون ، حين يصبح النور خطراً من أكبر الأخطار

وهل كان النور قط إلا خطراً من أكبر الأخطار ، وهدفاً للشياطين والفجار ، وللجهلاء والأغرار ، ولكل من يكره الإبصار ، لأنه مخلوق لعالم العماية ، غريب فى عالم الأبصار ؟ !

* * *

من الذى ضربوه لأنه فى الظلام ؟ ومن الذى تركوه لأنه فى النور ؟

إن الذى فى الظلام لآمن مستور

وإن الذى هو هدف الرماة فى الحرب والسلم وفى الأرض والهواء وفى النيبة والحضور ، لهو الذى فى النور فى هذه العصور وفى جميع العصور

وما صنعت « وقاية المدنيين » فى أيامنا هذه إلا أن كشفت السر « للجمهور » ، وهو أغنى الأسرار عن الكشف وأحقها بالظهور .

* * *

والأمر هين بحمد الله : لفة من الورق الأزرق أو لفتان أو لفات ثلاث ، والنور محفوظ لعينيك من وراء الحجرات ، محجوب عن طيارات الخيال وطيارات الواقع . . . لا سمحت بها السماء ، ولا اتسع لها الفضاء

وإنى لأحمد الله على تجارب الوقاية ، لأنها خليقة أن تحبب الاعتكاف إلى أكثر الناس ، وإن كان بعض الناس ليخافون العزلة أشد من خوفهم أخطار التجارب والغارات

ونحن المصريين محتاجون إلى تجربة الاعتكاف ، لأننا من أقل الأمم طاقة به وصبراً عليه . وما ظنك بمصرى يمكث فى بيته ثلاثة أيام لا يرعه ولا يبرم بمكثه فيه ؟ ذلك فى رأى نفسه شهيد أعجب فى استشهاده من ماكسوينى وصبره عن الطعام ستين يوماً أو تزيد ! !

والاستقلال بالنفس نعمة من نعم الأخلاق نود لو وفر منها حظ هذه الأمة فى بداية استقلالها وفى تجاربها التى تجربها لحماية حوزتها ورد العادية عنها

لأن الرجل الذى يعيش بين الجماهير ولا ينعم بالوقت إلا وهو غارق فى غمارها مدفوع فى تيارها هو رجل ضائع فى الزحام ، أو صفر لا ينفرد عما جاوره من الأرقام ، أو هو شخصية بغير استقلال وبغير حدود ، كأنه يأخذ حياته على المشاع ولا يأخذها مستقلة معروفة الحدود والأقسام

فمن الواجب أن يستطيع الإنسان الاعتكاف فى بيته والاعتكاف فى شخصه ، وأن يكون مالكا لزمام نفسه ولا يكون مملوكا لزحام المجالس وضجة الرائحين والغادين على المشاع

وأعجب ما يلحظ فى هذا الباب أن الأمم التى تعرف العزلة وتطيق الانفراد هى أصلح الأمم للاجتماع وأقدرها على سياسة الناس

ونقول أعجب ما يلحظ ولا نعنى إلا العجب فى الظاهر دون الحقيقة الواقعة ، وإلا فاستقلال النفس ضمان الحرص على الحقوق وأن يكون لكل حده الذى يقف عنده ولا يخطو وراءه ، وأن يضن بحريته ولا يجور على حرية غيره ، وتلك هى أكرم صفات الاجتماع والمقارنة ، وهى هى لبابها صفة الاستقلال والقدرة على الانفراد ...

وفى العصر الحديث مخترعات كثيرة تعين على العزلة من يشاء أن يعان عليها

فالكتاب والصحيفة جليسان أنيسان ، والمذياع ينقل العالم إلى البيت فينفى الوحشة ويعود من يصغى إليه أن ينفرد وأن يقنع بالقليل من الجلساء ، ثم هذه التجارب التى نجرب بها قوة نفوسنا وقوة مدافعنا : أليس فيها معين على الاستقلال من غير ناحية الحرب والأهبة للدفاع ؟

بلى ! فإنها لتنقل الوحشة إلى الطريق أو إلى المجالس العامة ، فينفر منها من تعوّد الأنس فيها وعز عليه أن يصيبه بمعزل عنها

وتعلمنا أن نركن إلى نفوسنا ، وأن نغوص فى أعماق ضمائرنا

وأن نجد فيها ذخيرة تغنينا وتشبعنا فلا نشكو الخلو فى الخلوة ، ولا نبحث عن القوة فى كل مكان إلا المكان الذى ننفرد فيه

* * *

ولعلنا إذ نتعود الخلوة ينتهى بنا الأمر أن نحسبها خلوة اطمئنان إلى النفس والأقربين ، لا خلوة الخوف من العدو المغير والفزع مما يضمره القضاء أو القضاء

فمن الناس من يذكرون الغارات فيبالغون فى الحذر والحيطة ويظنون أن الدنيا كلها خطر ذو عيون وأقدام ، وأن القنابل تبحث عنهم فى كل مكان

ومنهم من يذكرون الغارات فيبالغون فى التواكل ويقولون كما يقول المتواكلون فى أوربا : إن يكن اسمك مكتوباً على قنبلة فلا فائدة من الوقاية ولا أمل فى النجاة

ومنهم قوام بين ذلك لا يتزعجون ولا يهملون ، ولكنهم « يعقلون ويتوكلون » أو يحسبون الحساب وهم مطمئنون ، لأنهم فرغوا من واجب الاحتراس فلم يبق إلا واجب الاطمئنان

فالإهمال لا يليق بكرامة الإنسان ولا بالمزايا الآدمية ، لأنه أشبه بصفات الحيوان السائم الذى لا يدرى ما يضره وما ينفعه ولا يتصرف فى مقاومة الحوادث التى تهدده واجتناب الهلاك الذى يفرض عليه اجتنابه

أما المبالغة فى الاحتراس والوسواس فهى الجبن الذميم بعينه؛ وليس بين الصفات التى تشين الإنسان أقبح من صفة الجبان

* * *

ولقد دلت التجارب فى أوربا على فائدة لهذه التجارب غير الفائدة المقصودة منها ، وهى نقص الجرائم والسرقات فى هذه الأوقات خلافاً لما كان مظنوناً فى البداية

وعللوا نقص الجرائم والسرقات بأمور كثيرة نشترك فى بعضها وتنفرد الأقطار الغربية ببعضها الذى لا نجاريها فيه ، والحمد لله مرة أخرى

فمن هذه الأمور كثرة الحراس ورجال الأمن القائمين بالتجربة فى الطرقات

ومنها شكوك اللصوص إذ يميزون فى أوقات السلم بين البيت النائم والبيت اليقظان ولكنهم يعجزون عن تمييز هذا وذاك متى تساوى الظلام فى جميع الأنحاء

ومنها — ولعله أهمها فى أوربا وأضعفها عندنا — أن السراق يصعب عليهم الهرب بالسيارات بعد اقتراف الجريمة لتقييد حركة السيارات وتشديد الرقابة عليها

ولا ندرى علام تسفر التجربة فى بلادنا ولم يبلغ لصوصنا بحمد الله مبلغ اللصوص المؤسرين الذين يعتمدون على الهرب فى السيارات ، ولا يزالون يهربون على الأقدام كما كانوا يهربون قبل ألف عام ، فى ظلام كان يخيم على الأيقاظ والنيام ، فى أيام الحرب أو أيام السلام ؟

والذاكرون للحرب الماضية فى بلادنا لا ينسون حوادث النشالين بالليل والنهار ، وقلما سلم منهم إنسان

ولعلهم أول من اخترع من زمرة اللصوص رد الأمانات إلى أصحابها متى استغنوا عنها ...!

فقد كانوا يأخذون لأنفسهم الورق النفيس ثم يلقون بالمحفظة أو الكيس فى صناديق البريد ، فيعود ما فيه من المحفوظات إلى أصحابه ، ولله أنفس لديهم من النقود

إلا مرة واحدة — أو مرة واحدة على ما نعلم نحن — أخذوا فيها المحفظة كلها وليس فيها نقود ولا ورق أنفس من النقود

وذاك أن صديقاً لنا أديباً خرج يوماً من عند المصور وفى جيبه محفظة — أو غلاف من الورق على الأصح — فيه اثنتا عشرة صورة شمسية لا تنفع أحداً غيره

قال لنا : سأذهب إلى مكتب البريد القريب فلا شك عندى فى رجعتها

ولكنه ذهب وعاود الذهاب والمحفظة ذاهبة لا تعود

فحار فى أمر هؤلاء اللصوص ، وسأل موظف البريد مرة وقد كان من الظرفاء : « عجبى لهم ما بالهم لا يردون هذه الصور التى لا قيمة لها عندهم وهم يردون الوثائق والسفاتج والأسانيد التى قد تشترى وتباع ؟ »

قال موظف البريد متظاهراً بالدهشة : « أتقول لا قيمة لها عندهم يا أستاذ ؟ كيف هذا ؟ إنهم لو وزعوها على زملائهم لأراحوا أنفسهم على الأقل من اثنتى عشرة محاولة أخرى بغير فائدة !

وهذه من طرائف النشالين فى الحرب الماضية ، ولكن طرائف النشالين خاصة ليست بالتى يستحب فيها التكرار أو التى